لوجد من يستجيده ، ويحامي عليه ويكابر فيه ، ويزعم أنه قد عارض وقابل و ناقض ، فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم واستجابة لغتهم وسهولة ذلك عليهم و كثرة شعرائهم و كثرة من هجاه منهم وعارض شعراء أصحابه وخطباء أمته .. ثم يقول .. والعرب في الرأى والعقل بطبقات ولهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المنثور » .

تلك هي الصورة الصحيحة للحركة الأدبية عند الجاهليين يرسمها الجاحظ ، ويبرز فيها جانب الشعر ويبرز فيها كذلك جانب الخطابة وما إلى ذلك من سجع وأمثال ، لكن الأمر لا يكاد يتعدى هذا إلى فن الرسائل أو الكتابة الفنية . ذلك أن النثر الفنى وإن كانت نشأته في الجاهلية من غير شك إلا أن الكتابة والرسائل كانت طوراً تالياً من أطواره ومرحلة متقدمة من مراحله ، فاذا ما التزمنا موقف النصفة والاعتدال واحتكمنا إلى الدليل القاطع والبرهان لم نكد نرى رأياً غير هذا . والجدير بالذكر أن الذين عرضوا لقضية الإعجاز فى القرآن ، وألجأهم ذلك إلى أن يناقشوا صور البيان كذلك عند الجاهليين ، لم يجدوا أكثر مما وجده الجاحظ كما مر من قبل ، ولنقف عند الباقلانى بين هؤلاء لنؤكد ذلك بالدليل . يقول :

« ألا ترى أنهم قد كان ينافر شعراؤهم بعضهم بعضاً ، ولهم فى ذلك مواقف معروفة ، وأخبار مشهورة ، وأيام منقولة ، وكانوا يتنافسون على الفصاحة والخطابة والذلاقة ، ويتبجحون بذلك ويتفاخرون بينهم .. ويقول .. ولو كان وجد له (أى للقرآن) مثل لكان ينقل إلينا ، ولعرفناه ،